



## شكر وعرفان

بداية أشكر الله عزوجلّ، على ما وصلت إليه اليوم فبفضله أتممت عملي بعد كلّ ما مررت به من صعوبات وتحديات، لولاه بقيت عالقة وسط أفكاري التي تتصارع داخل عقلي، الذي بات مرهقا من كثرة التفكير.

أودّ أن أشكر الأستاذة آمنة بلعلّى، التي مسكت بيدي حينما كنت تائهة في متاهة التساؤلات وطرح الإشكاليات. رغم أنني جاهلة لا أعرف سوى القليل لكنها ظلت مؤمنة بقدرتي على الوصول إلى هدفي الذي كنت أسعى إليه.

## إهداء

لقطرات الندى التي تزين العشب، لنسمات الهواء الباردة التي تداعب أوراق الشجر المغيوم  
التي تحجب الشمس وتمكننا من النظر، للأجواء اللطيفة التي تزرع في نفوسنا الأمل،  
ولرائحة التراب بعد أول قطرات من المطر، وللهدوء الرّاعد في ليالي السمر، ولصوت أمي  
الذي يعزف لنا يذيب الحجر، ووقفه أبي التي تهدّ الصّخر.

مسيّليا

مقدمة

ترتكز الرواية على عدة عناصر أساسية تكون هي المسيرة للأحداث وهي بمثابة الأعمدة التي تستند عليها البنية لتكون مستقيمة، وي طرح كثير من الروايات عوالم اجتماعية ونفسية لشخصيات لا تكاد تختلف عن عوالم الشخوص الواقعية، فتمثلها لتكشف عن ملابساتها، فتجعل القارئ يقرأ الواقع من خلالها، على الرغم من أن الكاتب يحملها كثيرا من الرموز والإيحاءات التي تجعل منها عالما متخيلا. وقد حملت رواية **ريح الجنون أو عندما يتيه الوطن** للكاتب بختي ضيف الله عدة أبعاد منها: التاريخية والاجتماعية والنفسية، ويمكن دراستها من جوانب مختلفة باختلاف القراءات لها.

وبعيدا عن كل الموضوعات المستهلكة المتعلقة بالعناصر التقليدية لتوصيف الرواية كموضوعات تتعلق بالشكل الروائي كالبنية السردية وبنية الشخصيات والزمان والمكان، وعلى أهميتها، فضلت اختيار دراسة أنساق الجنون في هذه الرواية، باعتباره موضوعا فلسفيا وظاهرة نفسية تميزت بها الرواية، ويثير كثيرا من الأسئلة التي بدت لي إشكالية مميزة لدى هذا الكاتب، ولذا بنيت الموضوع على محاولة حل هذه الإشكالية بأسئلتها التي من قبيل: ماهو الجنون؟ كيف تجلت صورته في الرواية؟ وما علاقته بشخصيات الرواية؟ وكيف يتحول إلى موضوع استعاري؟ هو ما يمكن رصد متخيل الرواية؟ وتمثيل الكاتب المختلف له؟ وقد قسمت بحثي إلى فصلين يحملان مجموعة من العناصر:

**-الفصل الأول: الموسوم "مسار الجنون المرضي ومآلاته" تحدثت فيه عن الشخصية**

الرئيسية في الرواية السيدة مريم، باعتبارها نموذجا إنسانيا أصيبت بهذه الحالة العصبية، فكشفت عن الأسباب الاجتماعية والنفسية التي قادتها إلى الجنون، وتوصيف حالتها كما وردت في ثنايا الرواية.

وفزعت الفصل إلى مبحثين، هما: **الصراعات الداخلية وغياب الوعي، ومن اللاوعي إلى الوعي الحذر.**

**-الفصل الثاني: المعنون "البعد الاستعاري للجنون" وتحدثت فيه عن الجنون بوصفه مفهوما**

استعاريا عابرا لمختلف الشخصيات، له علاقة بمفاهيم مجاورة كالجشع والتيه والخروج عن المؤلف

الاجتماعي وغيرها، ولذلك تفرع من هذا الفصل مبحثان هما: استعارات الجنون، ونبوءة ما بعد الجنون.

يعود سبب اختياري لهذا الموضوع إلى: كون الرواية جديدة، أردت دراسة موضوع الجنون فيها، واستظهار صورته المميزة التي صورها الكاتب في روايته، كونه موضوعا شيقا ومميزا له مظاهره الكثيرة في حياتنا اليومية نتعايش معه، وكذلك يرجع الاختيار إلى طريقة التمثيل المختلفة والاستخدام الجديد لمفهوم الجنون الذي أضفى جمالية على الرواية، فجعل منها تمثيلا استعاريا لوضعية الوطن خلال مرحلة سياسية من مسار تاريخ الجزائر، وهو ما يفتح بابا لدراسات جديدة بعيدة عن الدراسات الشكلية.

انهيت بحثي بخاتمة جمعت فيه النتائج المتمحورة حول دراستي لأنساق الجنون في رواية "ريح الجنون أو عندما يتيه الوطن" للكاتب "بختي ضيف الله".

اعتمدت في البحث على منهج يستفيد من آليات التحليل النفسي، والاجتماعي، والتاريخي، وبعض الموجهات التأويلية المرتبطة بفهم ميشال فوكو للجنون، وقد استعنت لأجل ذلك بمراجع أهمها:

- موجز تاريخ الجنون ل روي بورتر؛

- الكبت ل سيغموند فرويد؛

- الهيمنة الذكورية ل بيار بورديو.

لا يخلو أي عمل من عثرات وصعوبات نذكر منها: صعوبة الإحاطة بمفهوم الجنون بمعانيه المختلفة، ومحاولة رفع الستار عما يخفيه الكاتب من مفاهيم ذات معنى استعاري. وكذلك عدم تناول الباحثين موضوع الجنون في دراستهم لرواية "ريح الجنون أو عندما يتيه الوطن"، لكنني حاولت جاهدة أن أنجز عملا لعله يكون مصدر إلهام للباحثين.

ولا يسعني في الأخير سوى أن أشكر الأستاذة آمنة بلعلى التي تشرفت بإشرافها، وكذا أعضاء اللجنة على قراءتهم المذكرة وتصويباتهم.

الفصل الأول:  
مسار الجنون المرضي  
وماآلاته

**تمهيد:**

تدور أحداث الرواية حول السيدة مريم وعائلتها، إذ يسرد لنا الكاتب أحداث حياتهم وكيف تدهورت أحوالهم وتفككت أسرته بسبب سوء التسيير وعدم التفاهم بينهم. ويضعنا من البداية أمام ظاهرة جنون السيدة مريم الذي زعزع مشاعر أبنائها وجعلهم في ضياع لا وجهة لهم في هذا العالم وما زاد على همهم همًا جشع وطمع والدهم ذو الطباع القاسية والشخصية الغامضة الباردة.

لقد أثر المجتمع وما طرأ عليه من تطورات بعد الاستقلال على عقول الناس، فانشغل كل واحد بنفسه. وأخذتهم الدنيا بملذاتها فتركوا أساسيات الحياة غير مكترئين بأحوال بعضهم البعض، أما مريم فقد انسحبت لعالمها المظلم وغاب إدراكها عما يجول من حولها، أما زوجها أسعد، فقد أغرته المتاجر الفاخرة والأماك، وأمّا ابنها رضا الذي كان يحب الرياضة فقد انخرط في عالم المخدرات والشهوات، وتخلّى وسيم عن ذاته وطباعه الهادئة وحياته المثقفة واتّبع ساحات الرقص، أما رقية فقد حاولت جاهدة إيجاد حضن آخر يحوي ضّعفها ويعوّضها تقصير والديها، فبدأت بملاحقة أستاذها الجامعي منير الذي اتضح في الأخير أنّه أخوها غير الشقيق من أم ثانية.

انقلبت حياة العائلة وساءت العلاقة بينهم وصاروا غرباء في نفس المنزل، كل واحد منهم عصفت به ريح جنونه ودفعته بعيدا عن البيت الدافئ الذي كان المأمن الوحيد له. لكن في نهاية المطاف عرف كل واحد منهم طريقة العودة إلى سابق عهدهم.

بعد كل العذاب والألم أخيرا أتى الفرج، مريم التقت بطبيب لطيف ساعدها وأخرجها من الحالة التي فيها، وأسعد لاقى شرّ أعماله وأدخل الى السجن ليدفع ثمن كل أخطائه. ووسيم استيقظ من غفلته وعاد لكتابه أشعاره، ورقية بعد أن اكتشفت أنّ الأستاذ هو أخوها وأنّه تقرب منها لحمايتها مما قد تفعله لو وقعت بين أيدي شخص يستغلها، سامحته وتقبّلته كأخ، كما أنّها التقت بآنس طبيب أمها وارتبطت به.

أما بالنسبة لرضا فلم يُعرف له أثر، مما فتح جرحا في قلب والدته يصعب شفاؤه وفي النهاية عادت المياه إلى مجاريها وعاد كل واحد منهم إلى وعيه وتمّ لمّ شمل العائلة بعد الكثير من المعاناة. وهكذا يبدو الجنون الذي أصاب الأم حالة متعدية لها تجلياتها في سلوكات أبنائها غير المسؤولة التي ساهمت في تشتيت العائلة.

## المبحث الأول: الصّراعات الداخليّة وغياب الوعي:

إنّ الجنون حالة مرضية تصيب عقل الإنسان، وتتميّز بأنّها تُفقد المصاب بها الاتصال بالواقع مما يؤدي إلى انحراف السلوك العادي عنده وهذه الحالة تعتبر اضطراباً نفسياً خطيراً إلى حدّ ما، إذ تؤثر على حالة الإنسان وفكره وانخراطه في المجتمع، تجعله يعيش داخل معتقدات غير واقعية، أو في أوهام لا أساس لها من الصّحة كما قد يسبب في هلوسات وتخيلات غير منطقية، تغيير السلوك الإنساني وتجعل الفرد مدفوعاً أو عنيفاً، يتصرف دون وعي أو تفكير.

الجنون حالة تحتاج إلى نظرة وتقييم من أخصائيين في المجال ليقدموا علاجات تخفف اضطرابات المزاج والعواطف، ومن المؤكد أنّها حالة لا تأتي من تلقاء نفسها، إنّما تكون بسبب نقطة سوداء في حياة المريض أو وصمة كبيرة في جوارحه لا يشفى منها حتى يُعرف السر وراء وصوله لهذه الحالة المزرية.

إنّ الجنون حالة غريبة تأتي دون سابق إنذار وتفيد المريض ومن حوله فتؤثر سلبيًا على الجميع، فمجيئها المفاجئ أمر مرعب جدا يصعب التعامل معه فهو مرض لا يصاحبه الألم أو أعراض التعب والحمى إنما يُخلُّ بالتصرفات ويشوه السلوكيات لدى صاحبها ويخرجه عن عالم الإدراك ويجرده من العقل. إذ "ليست نهاية الأزمنة والعالم هي التي ستبين لنا أن الانسان مجنون إلى الحد الذي يجعله لا يكثرث لهذه النهاية، بل تنامي الجنون واكتساحه الصامت هما اللذان يشيران إلى أن العالم قريب من كارثته النهائية وأن جنون الانسان هو الذي يستدعي هذه النهاية ويجعلها ضرورية"<sup>1</sup>. أي أن الجنون والعدم نفس الشيء أو بمعنى أصح -الجنون يعني الموت- أو النهاية الحتمية للمرىء فهو مرض لا يصدر أي ضوضاء أثناء اكتساحه لجسد وعقل المريض، وقد سمي بالمرض الصامت فهو يأتي على غفلة وبشكل غير متوقع، إذ يكون الانسان جالسا بشكل عادي حتى تهاجمه الضغوطات أو يمر بموقف ما يصاب بانهيار عصبي آخره تلف خلايا الدماغ أو فقدان العقل بشكل مؤقت أو دائم حسب حالته والأسباب التي أدت به لتلك الحالة.

<sup>1</sup> ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2006، ص11.

إنّ جنون الانسان يعني ان هذا العالم في خطر من هذه الحالة الغريبة فلو أن كل من على وجه الارض فقدوا عقولهم لأصبحت كارثة عظمى تهدد البشرية والكرة الأرضية بشكل كامل وقد تسبب في الدمار الشامل ونهاية لهذا العالم.

كما أن خطر وجودهم يتكاثر بتكاثر عددهم وقد خاف الناس من انتقال المرض اليهم بطريقة ما فهم لا يدرون لو كان مرضا معديا او وراثيا أو إن كان مرضا عاديا غموضه بات مشكلة أكبر بكثير من وجود المرض بحد ذاتهم.<sup>1</sup>

فسر الأطباء الجنون على أنه حالة مرضية مثل باقي الأمراض الجسدية الأخرى، أي أنه ناجم عن اضطراب في وظيفة الدماغ، شأنه شأن الأمراض الأخرى التي تنشأ عن اضطراب مماثل في إحدى أجزاء الجسم، أما علماء النفس، فقد ربطوا هذه الحالة بالاضطرابات الداخلية وسوء توافق الشخصية مع المجتمع، وذلك لوجود صراعات في العلاقات الخاصة<sup>2</sup>. ولعلّ هذا الأخير هو الأقرب والأكثر بروزا عند السيدة مريم إذ سحبتها اضطراباتها النفسية إلى مستنقع أسود ومظلم جداً، وغابت عن هذا العالم الذي تراه موحشا، ولا تستطيع تقبله أو التعايش فيه، فلجأت إلى اللأوعي للهروب مما لا تستطيع تحمّله، فعالمها لم يكن جميلا على الإطلاق وكثيرا ما «تثبت العقد من صدمة عاطفية .. ثم ينسى الإنسان سبب الصدمة لكن العقدة تظلّ حية في نفسه»<sup>3</sup> تماما، فعندما يشعر الإنسان بالكثير من الضغوطات ينسى ما يجول بداخله، لكنّه يستمر في الشعور بالألم والقلق حياله وكلّ واحد كيف يواجه هذه الضغوطات، فمن الناس من يتقبلها ويتجاوزها ومنهم من يظل عالقا فيها دون وجهة، ومريم كانت من الذين علقوا في هذه الدوامة اللامتناهية من الاضطرابات النفسية، لقد كان جنونها كالسبيل الوحيد للهروب من ذلك العالم، فلا زوجها يهتم لأمرها ولا الناس حولها قادرين على إسعادها، فاختارت أن تكتم الأمر داخلها حتى سلب منها عقلها وأصبحت جثة هامدة لا روح فيها ولا حياة. كالغصن المكسور المعلق على الشجرة لا يزهر أبدا وليس له أي نفع لكنّه يظل عالقا عليها تحركه الرياح كيفما

<sup>1</sup> ينظر ميشال فوكو .

<sup>2</sup> - ينظر: حسن مظفر الرزوي، الجنون قراءة أولية لدلالاته في المجتمع الإسلامي، واحة النفس المطمئنة، كلية الحداثة

الجامعة، الموصل، العراق [https://www.elazayem.com/main/islamic\\_encyclopedia/null](https://www.elazayem.com/main/islamic_encyclopedia/null)

<sup>3</sup> - سيجموند فرويد، الكبت تحليل نفسي، ترجمة علي سيد حضارة، ط1، المكتبة الشعبية 39، القاهرة، بدون سنة، ص

تشاء «خرجت ليلاً، تتبع خيوط الضوء الشاردة، ترتعد من شدة البرد. دفعها جنونها بقوة خارج الأسوار العالية»<sup>1</sup>.

هي لم تعد تدري بما يجول من حولها وكلّ ما يهمها هو الخروج من ذلك المكان الكئيب الذي يخنقها ويمنعها من التنفس بحرية ويشعرها أنّها في سجن رهيب داخل بيتها الذي قضت فيه على سنين عمرها، لم تعد تتحمّل ذلك السواد ولم تجد لنفسها سوى الهروب كحلّ لمشكلتها، نسيت من تكون ومن أين أنت ونسيت أولادها وزوجها وسكان قريتها، الذين لطالما ساعدتهم بكلّ ما تملك، كلّ ما تعرفه هو أنّ هناك شيئاً بداخلها يكبس على نفسها ولن تتخلّص منه إلاّ بكسر قيوده التي علّقها فيها، فخرجت للبحث عن مكان آخر تستطيع فيه التنفيس عن ما بداخلها دون أن تتأذى.

كان بيت الزاعي أو بالأحرى خيمته المتواضعة ملجأ باتت فيه ليلة كاملة، وهو احترم ذلك ولم يزعجها وسمح لها بحلب غنمه لتسدّ جوعها القاتل الذي أحست به، حيث يقول الزاعي: «في لحظة تفكير بالأمر سمعت بكاء امرأة في الزريبة، فعرفت بأنّها السيّدة مريم، لأنّي علمت بخبر هروبها من أحد الرعاة، تراجعت إلى الوراء، وانتظرت الصّباح، لعلّها تكلمني وتبث شكواها إليّ»<sup>2</sup>.

بعد أن هربت البائسة وجدت لنفسها مخبئاً مؤقتاً لكن لم يُطل بها الأمر حتى لحق بها أولادها وجروها إلى مستشفى المجانين بعد أن عجزوا عن فهم ما يجول في خاطرها، ومعرفة السبب الذي أوصلها لحالتها المستعصية، «وأخذت إلى مستشفى الأمراض النفسية والعقلية... سلكت، لأول مرة، طريقاً كثير المنعرجات والمنحدرات كمسارها في هذه الحياة»<sup>3</sup> ولم تعش بسعادة ولم تر يوماً جميلاً وها هي الآن ترمى وراء الأسوار بين ناس اختارت العيش داخل ذلك الظلام الموحش بدلا من مواجهة العالم والتصدي للمصاعب، ولحسن حظ السيّدة مريم أنّها وقعت بين أيدي أمينة، فالطبيب الذي تكفّل بحالتها اعتبرها كأم ثانية له، وسعى جاهدا لمعرفة السبب الحقيقي الذي أوصل سيّدة راقية

<sup>1</sup> - بختي ضيف الله، ريح الجنون أو عندما يبني الوطن، ط 1، دار النشر خيال، برج بوعريبيج، الجزائر، 2021 ص 14.

<sup>2</sup> - الرواية، ص 15.

<sup>3</sup> - الرواية، ص 19.

إلى ذلك الوضع المزري، لأبد وأنها وصمة كبيرة وحمل ثقيل حملته لوحدها سنوات طويلة حتى خرجت عن السيطرة ولم تعد تعرف رأسها من قدميها، وكأنها صفحة بيضاء شوّهتها قساوة الحياة.

### - مجتمع الذكورة كمصدر للجنون:

كان أول سبب في تدهور حالتها وانهارها هو زوجها أسعد الذي لم يعاملها يوماً كامرأة على الإطلاق لطالما كان قاسياً وغامضاً كأنه يخفي سرّاً عظيماً وهي لم تكن تجرأ على فتح فمها أمامه فأى امرأة هذه التي تستطيع رفع صوتها أمام الرجل في هذا المجتمع الذكوري، فمهما حدث تكون المرأة الضحية في الأمر والرجل دوماً على حق وله كلّ السلطة والقوة لقيهرها وذلك لوجود التفاوت بين المجتمعات والتفريق بين الجنسين الذكر والأنثى، فالذكورية طاغية بشكل كبير ومستبد والمجتمع الذي تكون فيه امرأة رافضة لهذه السلطة المفارقة تدفن حياة لتكون عبرة لغيرها فلا يسمحون لها بالدفاع عن نفسها وأن تمارس حقها الطبيعي في العيش كالرجل.

انتشرت هذه الأفكار عبر العصور رغم تباعد الأزمنة بينها فالمرأة كانت كائناً محتقراً منذ الأزل لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾<sup>1</sup>، أي أن فكرة قتل البنات والتخلص منهنّ ليس بالشيء الجديد أو الغريب، فهو معروف لدى شعوب العالم كلّها، فالفكرة نفسها وهي أن الرجل شخص عظيم؛ قوي، متسلط والمرأة كائن مستضعف ورقيق خاضع لهذا المتجبر الكبير، فلا مجال للمقارنة بينهما، لذلك فمريم مثلها مثل باقي النساء في هذا المجتمع الطاغية لا تقدر على رفع رأسها أمام تجبر زوجها، «ألم يكن ذات كلمات خشنة تستنفر كل سامع؟ لا أستطيع الوقوف أمامه، فهو لا يعطي لي طرف حديث لأحدثه في هدوء...»<sup>2</sup>.

ذلك لأنّه السيّد الذي لا يناقش أموره مع أيّ كان خصوصاً وأنها امرأة، فلا بتبادل معها أطراف الحديث ويعاملها بكلّ برود ولا مبالاة. كأنّها أثاث في ذلك المنزل لا أكثر، لذا تضطر لكتف شعورها المؤلم داخلها كي لا تؤثر على أولادها وتهدم بيتها، ذلك أن «إنّ مبدأ الدونية والإستبعاد للمرأة الذي يصدّق عليه ويضخمه النسق الأسطوري - الطقوسي - لدرجة العمل منه مبدأ لتقييم كلّ الكون

<sup>1</sup> - سورة التكويد، الآية 8-9.

<sup>2</sup> - الزواية، ص 22.

ليس شيئاً آخر إلا اللاتماثل (Dissymétrie) الجوهرى الذي هو لا تماثل الذات والموضوع والعون والوسيلة والذي يتأسس بين الرجل والمرأة على أرضية المبادلات الرمزية، وعلى أرضية علاقات الإنتاج وإعادة الإنتاج لرأس المال الرّمزي، حيث الإجراء المركزي هو السوق الزوجية والذي هو في أساس النظام الإجماعي كله، ولا تستطيع النساء فيه الظهور إلا كأشياء<sup>1</sup>، أي أن المرأة مجرد آلة للجنس والإنتاج لا أكثر، وليس لها مكانة وظيفية أخرى والرجل هو المتحكم في كل شيء حتى أنه يكون المالك الرّسمي للإنتاج أي الأولاد، وبالتالي نجدهم يأخذون الكنية عن آباءهم رغم أن النساء هنّ من يتحملنّ عناء الإنجاب وآلام الولادة والإرضاع، إلا أنّ الفضل يعود للرجل ويتم إلغاء دور المرأة منه تماماً.

إنّ مريم لم تكن مختلفة عن غيرها من النساء، فقد رضخت للأمر الواقع وتقبلت ما يحدث معها ظاهرياً أمّا في جوارحها فكان لها رأي آخر، إذ إنّها تمنّت حياة أكثر مساواة وأرادت أن يحنّ أسعد ويعطف عليها ويعاملها كجزء مهم في حياته كما يعامل متاجره ومحلاته. فقد زاده انتشار الطبقيّة تجبراً وقسوة فأصبح السّباق نحو الأفضلية هو الأولى له من زوجته وأسرته، فرماها في زاوية من زوايا البيت وتركها تلقى حتفها دون أن يلتفت لها، وركّز على ثروته وكيف يصل إليها بينما هي وحيدة تتصارع مع ذاتها وتتآكل من الدّاخل، وانتشر السّواد في روحها وبدأ بالتهاهما وأطفأ نورها.

#### - العالم المادي كسبب للجنون:

صارت مريم مظلمة وفارغة كأنّ لا حياة فيها مثلها مثل أي أداة تتحرّك دون إدراك منها، غائبة عن هذا العالم لا تعرف منه شيئاً، كأرض قاحلة دمرتها العواصف ومسحتها من الوجود، فبعد خروج المستعمر من البلاد مخلفاً وراءه الدّمار، أصبح النّاس في سباق لكسب الثروات وترميم ما يمكن ترميمه في عالمهم المتدهور، فصارت وجهتهم الأولى بناء بيوت كبيرة وامتلاك متاجر فخمة تقليداً للغرب ولسدّ الثغرات التي تركها فيهم الاستعمار، «وأخيراً اشترى زوجها أسعد بيتاً واسعاً من طابقين يقع في طرف المدينة الشرقي، هو أفضل البيوت في الحيّ بعد ما باع بيته الريفي الكبير، المحاط

<sup>1</sup> - بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة د. سلمان فعفراني، ط1، دار النشر في منتدى مكتبة الإسكندرية، توزيع مركز دراسات العربية، لبنان 2009، ص 72-73.

بالأشجار الكبيرة والمثمرة من أشهر البيوت الريفية وأعرقها ورثه عن أبيه»<sup>1</sup>، كل شخص يريد أن يكون له بيت أفضل مجهز بأحدث الأجهزة والأدوات التي تخّصه من مشاق الحياة.

لم يعد هناك من يهتم بالبيوت الطينية القديمة وما ورثوه عن أجدادهم فهي ليست واسعة والعيش فيها عذاب لضيقها ولحاجتها لبذل الكثير من الجهد إما في تنظيفها أو حتى لإبقائها صامدة، هي لا تتوفر على وسائل الراحة أبداً، وقد أغرت هذه الفكرة سكان الأرياف وانزاحوا إلى المدن لإيجاد فرص عمل وكسب أموال أكثر غير مبالين بما يمكن له أن يحدث أبداً.

كان السعي وراء امتلاك الثروة إحدى الأسباب التي دمرت حالة مريم كلياً، فزوجها لم يعد يكثر لأمرها أبداً، «لم تفكر السيدة مريم - ولو لمرة واحدة - في الانتحار، بيد أنها فكرت مرات عديدة في الهروب، كهجرة إلى عالم أفضل، حرة طليقة، لا أحد يشوش تفكيرها»<sup>2</sup> كل ما أرادته حياة هادئة خالية من تلك الضغوط النفسية التي تجرّها من ذاتها وترجعها كورقة بيضاء شوّها الكتمان لدرجة أنّ لا أحد يعرف كيف بدأت الخالة مع المجانين؟ وكيف وصلت إلى تلك الحالة المزرية؟ وكلّ واحد يحلّل القصة على ما يراه ويحكم عليه «ليت المجانين يستطيعون أن يعيدوا لنا تفاصيل جنونهم الدقيقة، ثمة أشياء لا يمكن كتابتها إلّا وقت حدوثها»<sup>3</sup>.

لا أحد يعرف متى بدأت معهم الحالة وكيف بدأت؟ وما السبب الذي حفزها لتبدأ؟، المجنون كلامه غير موثوق، فلن يقول الحقيقة حول ما حدث له وإن تحدّث فإنّه سيتفوّه بأمر غير مفهومة أو لا أحد سيأخذ كلامه بعين الاعتبار يعتبرونه مجرد كلام لا معنى له من الأساس رغم انتشار مقولة "خذوا الحكمة من أفواه المجانين فلا أحد يصدق ويعمل بها ربّما بسبب مظهر المجانين وتصرفاتهم وحركاتهم الغريبة، والجدير بالذّكر أن مريم كانت جميلة ولطيفة ذات قلب طيب، لم يسبق لأحد أن تكلم عنها بالسوء أبداً لم يتوقع أحد أنّ مصيرها سيكون الجنون، هذا البلاء الخبيث الذي لطالما

<sup>1</sup> - الرواية، ص 26.

<sup>2</sup> - الرواية، ص 13.

<sup>3</sup> - الرواية، ص 19.

انكشفت عنه أمور غريبة واختلفت التفسيرات فيه عبر العصور، نظرت الحضارات القديمة كما تقدم القول، إلى الجنون بوصفه نازلة تتسبب بها قوى فوق طبيعية<sup>1</sup>.

كان الجنون أمرا محيراً، فكل حضارة أرجعته لمعتقداتها الخاصة فمنهم من قال أنها لعنة الآلهة ومن قال أنها دعوة لوضع القرابين أو أنها دلالة لوجود أرواح شريرة. " حاولت نوزولوجيا العصر الكلاسيكي والعصور التي سبقتة تشخيصه وبين العوالم الثقافية ( بل السياسية والايديولوجية والاخلاقية أيضا) التي ستثيرها شخصية المجنون وهي عوالم تسلت إلى كافة أشكال التعبير الإنساني الأدب والفن والفلسفة والأحكام الإجتماعية وكذا مجمل التصورات التي يعيش فيها المجنون داخل اللغة وداخل خطاطات السلوك الاجتماعي وعوالم التقديس والتدنيس على حد سواء"<sup>2</sup>. أي أن غرابة ظاهرة الجنون جعلتهم يربطونها بكل ما هو غريب عنهم وبالتالي فكل السلوكيات العدوانية أو التصرفات غير متوقعة تربط بالجنون حتى لو أتت من أشخاص مقدسين كالرهبان والقسيسين ورجال الدين، ولطالما شكل هذا الموضوع خوفا كبيرا من الناس والعلماء وذلك لغموضه وعدم معرفة أسبابه الرئيسية، لذلك اتخذوا بعض الاجراءات ومنها اقصاء المصابين بالجنون وعزلهم عن العالم. " قد حل الفقراء والمشردون والخاضعون للإصلاح والمرضى عقليا محل المصاب بالجنون"<sup>3</sup>.

إذا كان مرض الجذام هو ما يربع العالم كله كونه معدي ويسبب في الشلل لو لم يتم علاجهم وقد قام الاطباء آنذاك بعزل المرضى ورفضوا ادماجه مع باقي الناس في المستشفيات خوفا من العدوى القاتلة، وتم وضعهم في بيوت بعيدة عن عامة الناس وكذلك فعلوا مع المجانين وحبسوهم بحجة العلاج الروحي، وربطوا حالتهم بحب الله لهم، إذ عاقبهم على أخطائهم في الدنيا كي لا يلقوا عقابهم في الآخرة، واستمرت هذه التحليلات والتفسيرات المرتبطة بالعقائد الدينية والطقوس الإلهية وغيرها من الأفكار الأخرى".

<sup>1</sup> ينظر: روي بورتر موجز، تاريخ الجنون، ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، ط1، 2012، ص 21.

<sup>2</sup> ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص11.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص26.

إن الأمر يتعلق بالجنون وهي ظاهرة ظلت في حالة كمون لمدة قرنين تقريبا وستشكل حالة رعب كذلك الذي أحدثه الجزام، وستثير كما فعل حالات العزل والاقصاء والتطهير وهي الحالات التي ستلازم وجوده<sup>1</sup> أي طالما أن الجنون موجود فالإقصاء وإخلاء الشوارع من المجانين وحظرهم من التجول وسط الناس، سيظل أمرا قائما فممنوع على المجنون أن يكون في نفس المكان مع العقلاء لا يشاركونهم مجلسهم ولا يدخلون معه في حوارات خوفا من ردّات فعل غير متوقعة أو نتائج كارثية.

تعددت هذه التفسيرات لهذا المرض مما جعله محطة اهتمام من العلماء ومن الناس " إن صعود الجنون في بدايات عصر النهضة سيدرك أولا من خلال انهيار الرمزية القوطية كما لو أن شبكة الدلالات الروحية البالغة الضيق قد قادت هذا العالم إلى فقدان الكثير من ملامحه"<sup>2</sup>. إذ أن التفسيرات المرتبطة بعالم الآلهة والقديسين قد شغل موضعا آخر بعيد كل البعد عن حقيقة هذا المرض مما جعله أكثر ابهاما بدلا عن إيضاحه وإعطائه أسبابا وعلاجات تداويه وتقضي عليه فتفسيراتهم أقل ما يمكن القول فيها أنها لا معقولة ولا منطقية.

انتشرت التفسيرات الغربية لمدى طويل إلى أن جاء الطب ليحوّل هذه المعتقدات إلى أمور تحدث على مستوى الدماغ «ولا شيء آخر، تنبثق متعنا ومباهجنا، وضحكنا ودعاباتنا.. وتصدر عنه أيضا أشجاننا وآلامنا وأحزاننا وعبرتنا. ونحن نفكر بصفة خاصة، من خلاله. ونرى كذلك ونسمع ونميز البشع من الجميل، والشر من الخير، والसार من غيره... وهو ما يجلب الأرق والأخطاء غير المواتية، والتلهف العدمي، وشرود الذهن، والأفعال المخالفة للعرف»<sup>3</sup>. أي أنّ كلّ المشاعر التي يمكن أن يشعر بها الإنسان تأتي كفعل أولي من الدماغ، وأن أيّ خلل في وظيفته تخلّ بالإنسان كلّه وتظهر عليه كنتيجة أو ردّ فعل أعضاء الجسم على رسالة الدماغ فبالتالي يمكن إصلاحه إذا أصلح الخلل ومن هنا يمكن لنا أن نرى أسباب الجنون عديدة ومختلفة وأنّ التشخيصات عليه كثيرة حسب حالة المريض وحياته الخاصة والبيئة المحيطة به.

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص28.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص39.

<sup>3</sup> ينظر: روي بورتر موجز، تاريخ الجنون، ص25.

تأثرت مريم بشدة بكل ما يحيط بها من عوامل سيئة ففشل علاقتها بزوجها رغم عدم طلاقها إلا أنها كانت تعاني معه في صمت لأجل أولادها كأبي أم تود حماية أسرتها من الدمار الذي قد يحل بها إذا ما تفككت، زادا ذلك الخوف اضطراباً فلم تجد من تشتكي له همها وكنتمته بداخلها حتى خرجت عن السيطرة وغابت عن الوعي ودخلت في دوامة من الاضطرابات العقلية.

## 2 - المبحث الثاني: من اللاوعي إلى الوعي الحذر:

يُصبح الإنسان حذراً بعد أن يتعرّض للخذلان ممن حوله أو يمرّ في المصاعب، فهو يتعلّم من تجاربه الأولى دائماً، فيصبح حذراً جداً فيما يلي من حياته، كما يسكنه الخوف من تكرار نفس التجربة والتجرّع من نفس الألم مرة أخرى. وهذا ما حدث مع مريم فخوفها من العودة إلى ذلك المستتقع المظلم جعلها مرتبكة ومرعوبة طوال الوقت، فأصبحت تترقب كلّ الحركات من حولها، فحتى عند شفائها ظلّت المخاوف كالسحابة السوداء تلاحقها دائماً «لا تزال بعض السحب السوداء تأخذ جزءاً من نفسها الشفافة وتستعمرها؛ كريشة في مهب الريح، لا تعرف استقراراً»<sup>1</sup>، فحتى عندما شفيت وعادت إلى بيتها وأولادها وتغيرت أحوالها، وصار الجميع يعمل بجدّ لإرضائها وإسعادها خوفاً من أن تعود لحالتها السابقة وتذيقهم مرارة فراقها مرة أخرى، «عادت كلؤلؤة ثمينة يخافون عليها من الضياع، أو أن يمسخها غبار الحياة في غفلة منهم فيضيع جمالها، وتنهال كل المعاني فيها»<sup>2</sup>.

إنّ غيابها عن الواقع أثر عليها وعلى من حولها فكلمهم خافوا من فقدانها وهي أيضاً خافت من ذلك، فأولادها وعائلتها أغلى ما تملك «ولكم تمنّت أن يكون لها بيتها الخاص الذي تصنع فيه حياة جميلة برفقتهم كم حاولت أن تصنع لنفسها ولأسرتها مجدا يسوده الحب والحوار والاحترام، لكنّها لم توفق كثيراً في ذلك. صارت محاولاتها حريقاً في قلبها يؤلمها كلما تذكرت خطاياها»<sup>3</sup>. بمجرد أن تفكر في ذلك تعنتها مشاعر غريبة وتتألم لذلك الفشل الذي حصده من حياتها، اليوم قد عادت لأهلها وبيتها الكبير لكنّها ليست ذات الشخص الذي خرج من هناك، فهي الآن مليئة بالمشاعر السلبية والسواد من الدّاخل كأنّها مزهية كسرتها القطة فأعيد جمع قطعها بالغراء، رغم أنها ما زالت كاملة إلا

<sup>1</sup> - الرواية، ص 23.

<sup>2</sup> - الرواية، ص 25.

<sup>3</sup> - الرواية، ص 23.

أنها أصبحت مشوهة وشكلها مخالف لما كانت عليه، لقد سُلِبَ منها جمالها، حالها كحال بيت هجره أهله إلى الأبد، وسكنتها أشباح الخوف وانعدام الأمان، تجلس بين أولادها وتتنظر لاهتمامهم بها، لكنّها لا تشعر بالأمان الكامل معهم.

تخاف أن تتقلب الأمور بها مرة أخرى، فذلك الحبّ الطاهر الذي تشاركته مع زوجها في السنوات الأولى من الزواج قد تحوّل إلى وحش كاسر يحطّمها كلّما نظرت في وجهه ورأت تعابيره المرعبة. وعدم اكرائته لها، حتى وإن عاملها بلطف بعد عودتها إلا أن قلبها يخبرها بأنّه سيعود إلى تصرفاته المريبة، ففي النهاية هو رجل، وهو صاحب السلطة والكلمة الأولى في بيته، وقد قال الله تعالى ﴿الرّجال قوّامون على النّساء﴾<sup>1</sup>، ومن النّاس من يشرح هذه الآية على أنّ الرّجل هو السّنَد الذي تستند عليه المرأة ليحميها في هذه الحياة كونها الكائن الرقيق اللطيف.

إنّ البعض يقولون أنّ الرّجل أفضل من المرأة وأنّها دون أيّة فائدة تُذكر والرّجل هو سيّدها وحاكمها، وهذا المفهوم هو الأكثر انتشارا في العالم، وهو ما يربع مريم دائما ويشغل تفكيرها باستمرار، «يدخل بيته غاضبا ومتوترا دون أن يجدوا سببا ظاهرا لتوتره. أصبح لا يكلم النّاس إلا قليلا، كأنّه يبحث عن حدث بغير مجرى (لطفه) مع عائلته ومع كلّ النّاس»<sup>2</sup>. تصرفاته الغريبة تجعل مريم في قلق دائم تنتظر فقط متى يتحوّل إلى وحش مرّة أخرى ويعيدها إلى زاويتها القديمة مرمية كأثاث مكسور لا فائدة منه ظلّت تكتم ذلك الخوف داخلها خشية أن يلاحظ عليها أولادها أنّها لم تتحسن بشكل كامل، وتقلقهم معها مرّة أخرى، خصوصا ابنتها التي لا تكف عن مراقبة حال والديها خوفاً أن يعودا غريبا تحت نفس السقف من جديد، ومع قلقهم على أمهم قرروا التخفيف عنها قدر الإمكان، فأخذوها لتستنشق بعضا من هواء أرض الأجداد، لم يدركوا أنّها ستتأثر سلبيّا بذلك. يقول السارد:

«- ها هي أرض أجدادك يا مريم....»

الكلّ ابتسم إلا هي.. نزلت من السيّارة وكلّها ذهول، فلم تعد الأرض هي الأرض، كلّ شيء تغير، اقتربت المسافات البعيدة، الجبل الذي كان بالكاد الوصول إليه أصبح قريبا جدا..

<sup>1</sup> - سورة النّساء، الآية: 34.

<sup>2</sup> - الرواية، ص 41.

ها هو أمامها، وقد فقد وجهه الأخضر بعدما قضت عليه فؤوس الحمقى الحاقدين والعاثين»<sup>1</sup> كم من المحزن رؤية المكان الذي ترعرعت وكبرت فيه منهارا ومشوّه بوجه غير الذي عهدته، لقد دمر الاستعمار الجمال الذي امتلكته هذه البلاد، وترك فيها عادات غير عاداتها وبنیان غير بنیانها وزرع فيها ثقافات غير ثقافتها، وصار النَّاس يتسابقون لبنیان أكبر، فالمستعمر عمد إلى إخلاء الأراضي من الشَّعب وتعميرها بالمستوطنين، « جيوش الاحتلال الفرنسي وحاكم الجزائر حينذاك الدّاي حسين نصّت على عدم المساس بأملاك الشَّعب على الرّغم من أنّ البند الخامس من معاهدة الإستسلام التي وقعت في 05 جويلية 1830 بين الكونت دي بورمون قائد جيوش الاحتلال الفرنسي وحاكم الجزائر حينذاك الدّاي حسين ينص على عدم المساس بأملاك الشَّعب الجزائري ولا تجارتهم ولا صناعتهم، إلاّ أن الممتلكات الخاصة للجزائريين تعرّضت للسطو والنَّهب بمختلف الوسائل»<sup>2</sup> فقد قاموا بطرد الأهالي وإبادتهم ووضعوا مكانهم سكانا فرنسيين يعيشون في أراضيهم ويُسغَلُونَهُمْ كالخدم عندهم.

وبالتّالي فالمستوطنون أتوا ومعهم عاداتهم وأفكارهم الغريبة وزرعوها بين الأهالي وقاموا بصنع عالم آخر بدلا عما كان عليه الحال قبلهم، وأصبحت الأراضي الزراعية تحمل أطنانا من الإسمنت عوضا عن الزّرع والشّجر ومن شدّة كبر بنيانهم مقارنة بالمباني الجزائرية، تغلّغت تلك الأفكار إلى أدمغة النَّاس وأغوتهم وصار كلّ همهم تلك البيوت الواسعة والأدوات الجديدة وانزاحوا عن خدمة الأرض وراحوا يرفعون في البنيان ويتنافسون نحو الأفضلية ومن سيملك أضخم بيت، فنهشوا الأراضي الشاسعة وتوسعوا على حساب المزروعات فأصبحت كأنها قرى صغيرة رغم أنّها كانت مساحات خضراء تقاس بالهكتارات.

تلك المناظر كانت بمثابة مشهد رعب بالنسبة لمريم، ضغط الأمر على قلبها وكنمت صدمتها داخلها، لم ترغب بإفساد فرحة أولادها بالمكان، رغم تظاهرها بأنّ كلّ شيء لن يتمّ على خير أبداً، فذلك الشّعور يضغط عليها ويدخلها في متاهات لا مخرج لها أبداً، ولعلّ تجربتها الأولى

<sup>1</sup> - الرواية، ص 33.

<sup>2</sup> - نور الدّين بولحية، الاستعمار الكلاسيكي وجرائمه في حق الشعوب، الاستعمار الفرنسي أنموذجاً، مجلة آفاق علمية، العدد 15، مجلد 10، ج 01، جامعة باتنة، 2018، ص 13.

زرعت فيها وحشاً من المخاوف يلتهمها كلما تذكرت ما عاشته باحتمالية تكرار ذلك في أي لحظة ومنها فحتمًا عاد وعيها لكنه ليس مثل السابق، وقد تحوّلت لشخص مختلف يترقب حدوث الكارثة في أية لحظة وأن تنهار أحلامها من جديد. «ينطلق روسو من فرضية أساس تشكل قطب الرحي في فلسفته التربوية، وهي فرضية الطبيعة الخيرة للإنسان. إن هذا الأخير يولد كالصفحة البيضاء نقيًا خالصًا بدون شوائب»<sup>1</sup>، أي أنّ التجارب التي يخوضها الإنسان في حياته هي التي تقرر الهيئة التي سيكون عليها، فإن مرّ بصدمات وتكرّرت عنده المواقف المؤلمة فستعود بالسلب عليه، وكلّ إنسان كيف سيواجه هذه الأمور، فمن الناس من يتجه للفن والرّسم واكتشاف الهويات، والبعض الآخر يتحوّل لشخص قاس وبارد أو ربما عنيف أو مجرم، أمّا البعض فيكتم كلّ شيء داخله حتى يفقد السيطرة على نفسه ويفقد صوابه، ومنهم من يعيش في مخاوف دائمة، ورعب قد يسبب له انهيارات عصبية في نهاية المطاف.

بعض الضغوطات النفسية حتى وإن تحسنت وخفّت إلّا أنّها لا تتلاشى بشكل نهائي أبداً وبظلّ أثرها واضحاً على الفرد، فحتى الرسام حين يخطأ في رسمته يمسحها، لكن آثار المحاة تكون موجودة مهما غطّاها بالألوان وأخفاها عن عيون المشاهدين، فهو يعرف مكانها وتبقى ظاهرة في دماغه. نفس الشيء للمريض النفسي تبقى العقدة حيّة فيه لا شعورياً، تظلّ تحفر في دماغه دائماً حتى تسحبه لنفس الدّوامة من جديد ولن يكون هناك مفرّ آخر له أبداً، وهذا ما حدث مع مريم، فمع تواصل الصدمات التي تتلقاها يوماً بعد يوم، فقدت السيطرة على نفسها من جديد.

إن حزنها على ما حلّ بأرض أجدادها أصبح ذكرى أليمة تمزّق قلبها كلما تذكرت كيف أمضت طفولتها هناك « عندما نرحل إلى أماكن شتى من العالم سنكتشف أثراً من الماضي وآخر من الحاضر»<sup>2</sup> ويبدو أنّ مريم لم تتقبل لمسات الحاضر على ما عاشته هناك في طفولتها السعيدة. « - تعالوا يا أولاد .. هنا كانت تنام فرسي مع صغيرها كان لا يأكل إلّا من يديّ..

<sup>1</sup> محسن وحي، مفهوم التربية عند جون جاك روسو، الحوار المتمدن

. <https://m.ahewar.org/s.asp> / 21 / 12 / 2020

<sup>2</sup> - الرّواية، ص 32.

وكانت هي الأجل والأسرع، فازت في أغلب السباقات .... لم تستطع البقاء أكثر في المكان الذي عندما كانت تنظر إلى أعادها إلى طفولتها»<sup>1</sup>، عندما رأت تلك الأماكن عادت بالزمن إلى الوقت الذي كانت فيه طفلة بريئة لا يؤذيها شيء ولا تهمها التغيرات التي تحدث في هذا العالم، لم تعد تتحمل ذلك العبء الثقيل والتظاهر بأن كل شيء على خير ما يرام، وزاد الطين بلة انقلاب زوجها مرة أخرى وتحولته إلى رجل غامض من جديد، «بات الجميع مثل مشهدهم المسائي المؤلم. بعدما كانت مساءاتهم كأنها بلابل مغردة على أغصان قوية تحلم بمقبل جميل»<sup>2</sup>. وثم تتقلب القصص، وتطرق المشاكل الباب من حيث لا ندري، وقد تعود بنا إلى نقطة الصفر ونعيد تجرّع نفس الألم من جديد، كما حدث لمريم إذ دخلت عالم الجنون من جديد كأنه مصرّ على حبسها داخله للأبد، فبعض الأمراض وإن شفيت تترك أثرها في الإنسان، وقد يكون سببا في إعادته مرة أخرى، فهناك أمراض تشفى وأمراض تخفّ فقط وتعود للظهور من جديد إذا ما تمّ إزعاجها بتصرف ما، كخلايا سرطانية نائمة، أيّ حركة خاطئة قد توقظها وتسمح لها بالتكاثر والإنتشار أكثر.

اختلف العلماء حول الجنون فهناك من يقول أنه قابل للشفاء مثله مثل باقي الأمراض وهناك من يقول أنه يظل موجودا ولا يمكن شفاؤه مهما حدث عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أن النبيّ صلى الله عليه وسلّم: رفع القلم عن ثلاثة: "عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل".<sup>3</sup> أيّ أنّ المجنون هنا شخص خارج عن وعيه لا يدري ما يقوم به لذلك لا حكم عليه في تصرفاته التي تأتي خارجا عن إرادته دون شعور منه كما أنه مرض له أمل في الشفاء لقوله "حتى يعقل" أيّ حتى يعود له عقله ووعيه وهذا تقريبا المنظور

<sup>1</sup> - الرواية، ص 34.

<sup>2</sup> الرواية، ص 44.

<sup>3</sup> علوي بن عبد القادر السقاف، الموسوعة الفقهية، كتاب الطهارة المبحث الثاني، العقل الذرر السنّية،

<https://dorar.net/feqhia/245/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A8%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%82%D9%84>

الإسلامي لهذا المرض، إذ أنه حالة مؤقتة يمرّ بها صاحبها، ثم يعود لوعيه إذا ما تمّ علاجه وفهمه.

جعل الرسول صلى الله عليه وسلّم أمر إفاقة المجنون من مرضه متروكا لمشئئة الباري عزّ وجلّ ولم يوصده أمام أبواب الرّحمة الإلهية من رأفته بأمرته صلى الله عليه وسلّم من أجل هذا بات الجنون في ميزان السنّة النبوية من النّوع الذي قد تتوفر له فرصة عودة العقل وزوال البلوى<sup>1</sup>. فكأبى مرض آخر ابتلى الله به عبده ليختبر قوّة صبره، يمكن أن يبتليه بالجنون، ومن ثمّ يشفيه كأنّ شيئاً لم يكن يعود لسابق عهده بإذن الله ورحمته على عبده وقد عفا الله عن المجنون وجعله غير مؤهل لتأدية العبادات والفرائض كونه غائب عن عقله وعمّا يدور حوله، كما أنّه لا يفقه قولاً ولا يعرف ما يفعله، حتى وهذا قبل تطوّر الطب وظهور أنواع أمراض أخرى مشابهة للجنون في الأعراض الأولى لها كالإكتئاب، والصّرع، والوسواس المرضي، فكلّها أمراض مرتبطة بالأعصاب وبالدمّاع بشكل أدقّ وبالتالي فكلّها أمراض يمكن السيطرة عليها ببعض العقاقير والأدوية الخاصّة والمهدئات.

اختلفت طرق معالجة الجنون من عصر لآخر، فمنهم من ترك المجنون في حال سبيله ليعود لعقله لوحده ثم فيما بعد أولوا الإهتمام به، وبدأوا في البحث عن السبب وراء حدوث هذه الحالة من السوداوية، إن كانت من خبث المريض أم من غلبة المرض عليه وسطوته على دماغه بشكل كبير.

في الأخير يمكننا أن نقول أنّ السيدة مريم مرت بأمر عديده من قساوة المجتمع والبيئة المحيطة بها، ومن تعامل زوجها معها وممّا كان يحدث داخلها من اضطرابات، وعدم تقبلها لما

<sup>1</sup> - حسن مظفر الرزوي، الجنون قراءة أولية لدلالاته في المجتمع الإسلامي، واحة النفس المطمئنة، كلية الحداثة والجامعة، الموصل، العراق [https://www.elazayem.com/main/islamic\\_encyclopedia/null](https://www.elazayem.com/main/islamic_encyclopedia/null)

يحيط بها وكذلك عدم قدرتها على تحمّل كل تلك الضغوطات فإنّها فقدت السيطرة على نفسها بشكل هستيري أقرب إلى أن يكون هلوسة أفقدتها عقلها وأخذتها لعالم مختلف عن هذا العالم. ورغم أنّها شفيت منه إلا أنّ آثار ذلك المرض ظلّت تلاحقها وتحاول الإطاحة بها حتى نجحت وأعادتها إلى تلك الحياة المزرية والمرعبة، لكنّها في الأخير استطاعت التغلب عليها من جديد والتحرّر مرّة أخرى دون خوف لتكمل حياتها بسعادة، بعد أن حصل زوجها على العقاب الذي يستحقه وهي استطاعت لمّ شمل عائلتها من جديد.

**الفصل الثاني:**

**البعد الاستعاري للجنون**

## المبحث الأول: استعارات الجنون:

## تمهيد:

تعوّدنا في مجتمعنا على سماع بعض الصّفات التي ينعت بها النّاس بعضهم البعض ولعلّ أبرز هذه الصّفات هي الجنون، فأيّ شخص يقوم بحركة غريبة عن المعتاد يُنعت بالجنون حتى وإن لم يكن فاقدا لعقله ورغم سلامته.

تعتبر التصرفات غير المتوافقة مع ما هو معتاد عليه بين النّاس، كأنها ضرب من الجنون ولذلك فكلمة جنون تخرج عن معناها الأصلي لتكتسي معاني أخرى هي أقرب إلى التّأويلات التي يصف الإنسان بها بعض التصرفات التي لا تقتصر فقط على هذا المرض الذي يتسبب في غياب إدراك الإنسان، إنما لها آفاق أخرى تتمثل بحضور العقل الواعي والإدراك ومعه تصرفات مغايرة لما هو متفق عليه بين النّاس، فالشخص الذي يأتي بقواعد أو أفكار مخالفة لمعتقدات البشر يتحول إلى مجنون تلقائياً، كما يمكن لنا أيضاً أن نقول عن كلّ شخص يتصرّف على هواه دون مراعاة شؤون المجتمع والأسرة على أنّه شخص مجنون فقط لأنّه اختار طريقاً غير الطريق الذي رسمه له الأوّلون ، وبالتالي يصبح كل اختلاف عن الجماعة هو ضرب من الجنون.

## 1- الجشع جنون:

يعدّ أسعد في الرواية نموذج ذلك الرّجل الغامض الذي لا يُحدّث أي إنسان عن أحواله وعمّا يجول في خاطره، ينحاز دائماً للبقاء وحيداً كي لا يكشف أحد ما يفكر فيه أو ما هي خطته التي ينوي تنفيذها، حتى أسرته لا تجرؤ على مفاتحته في أي موضوع على الإطلاق فهو رجل متسلّط بطبعه الصعب لا أحد يجرؤ على التّعامل معه. يقول ابنه الأكبر علي: «أخشى أن يكون أبونا قد ارتكب جرماً لا يعترف، أو أنّ عليه ديناً عظيماً ونحن نتنعم في هذا البيت الكبير...»<sup>1</sup>. من شدة غموضه وتصرفاته المريبة فأولاده وزوجته دائمو القلق ممّا قد يفعله أو ما قد يأتي به من مصائب تقع على رؤوسهم، فهو رجل تغريه الأملاك وكل ما يهيمه هو منافسة نسيبه إبراهيم "والد كنته"، فكلّ واحد منهما يستعرض أملاكه أمام الآخر بتفاخر، «أحس الحاج إبراهيم بالخطر الذي

<sup>1</sup> - الرواية، ص 42.

داهمه من خصمه الخفي أسعد، هو الحسد الذي يشعل في النفوس لهيبا يحرق الأخضر واليابس»<sup>1</sup>.

فأسعد لا يرى أمامه سوى أملاكه وأصبح مهووسا بها ويطمع في الزيادة أكثر فأكثر كالدّب الجائع مهما ألقيت له من طعام طلب المزيد، أصابه الجشع بعد أن كان يعاني من الفقر لزمن طويل كأنه ينتقم لكل ليلة نام فيها في بيته البارد دون طعام، ها هو الآن يمتلك أكبر سلسلة متاجر وبيت جميل ليس له مثل في كلّ المنطقة، ومع ذلك فهو لا يزال يودّ الحصول على أشياء أكثر فصراعاته ومنافسته للحاج إبراهيم أعمته عن النعمة التي هو فيها، «يتم تحفيز المستهلكين عن طريق أحد الدوافع الأساسية الثلاث: المثل والإنجاز والتعبير عن الذات، والتي من شأنها أن تعطي معنى لذواتهم وللعالم وتنظيم أنشطتهم»<sup>2</sup>.

وبالتالي أسعد يود أن يعبر عن ذاته بأملكه ناسيا أنّه بشر في النهاية يلتهم المنتوجات ويقوم بمبادلاته التجارية، دون أن يتذكّر ماهيته الأساسية فقد تحوّل من إنسان مدرك لما حوله إلى مستهلك تنتهي فائدته في الحياة بانتهاء استهلاكه، فنراه دخل في عالم لا مخرج له على الاطلاق عالم لغته المال والسلع وقد وصل به هوسه بالمادة إلى ترك زوجته وأولاده في ضياع كبير «فالأب هو السند الذي تسند عليه العائلة لتتماسك وتكون قوية في وجه الصعاب، وهو الحامي الذي لا يسمح بالضرر أن يمس أفراد أسرته لكن حين يغيب هذا السند تتزعزع الأسرة وتتفكك، كما حدث لهذه العائلة هكذا تفعل الحيتان لا تبالي بالأسماك الصغيرة لا ترحم ضعفها»<sup>3</sup>، فقد غاب عن ذهنه أنّ زوجته مرهقة وعقلها لا يتحمّل ما يحدث، كما نسي أنّ أولاده قد يخرجون عن الطريق المستقيم ويتسبب في ضياع مستقبلهم، لقد جنّ جنونه وأعميت بصيرته فسبب دماراً أذى به نفسه وعائلته، حتى جيرانه وسكان مدينته. يقول السارد: «وأدخل أسعد والحاج إبراهيم اللذان أحرقا القلوب السّجن كأنهما كانا على موعد معه»<sup>4</sup>، فقد وصل بهما الجشع إلى إضرار حرائق أنتت بخسائر لكل من حولهم حتى الذين لا ذنب لهم فيما حدث. شوها المدينة بأكملها فكلّ واحد منهما

<sup>1</sup> - الرواية، ص 69.

<sup>2</sup> - رانية المخبني، د. نريمان عمار، سلوك المستهلك، الجامعة الافتراضية السورية، 2020.

<sup>3</sup> - الرواية، ص 70.

<sup>4</sup> - الرواية، ص 74.

أشعل حريقاً على معامل ومستودعات خصمه بسبب جنونها وهو سهماً بالمال، وبالتالي ترك بيته فارغاً موحشاً تشرّد أهله تحت ذلك السقف وأخذ كل واحد منهم يسلك طريقاً آخر لا نهاية له.

## 2- تغيير طريقة العيش جنون:

حين غاب ذلك السند الذي يحمي العائلة صار لا بدّ من إيجاد طرق أخرى ومواطن جديدة تأوي الطائر الذي كسر جناحه، هو الآن بحاجة لحضن يحميه من هذا العالم، وكلّ شخص تنزّين له الحياة بشكل مختلف وتعريه فتسحبه في تياراتها اللامتناهية.

رقية، الفتاة الوحيدة في هذه الأسرة صاحبة القلب الرقيق، والإحساس المرهف، مدلّة العائلة التي كانت تخشى دائماً من تفكك أسرتها، «تلتفت في كلّ خطوة تخطوها كأنها تخاف على شيء يطير من يديها أو من طارئ سيغير مشهدهم الرائع»<sup>1</sup> دائماً ما تظل مرعوبة مما قد يحدث لعائلتها لو عاد والدها لتصرفاته الغريبة أو إذا جُنّت أمها من جديد، وما إن حدث ذلك حتى تزعزعت ولم تعد تدرك ما تقوم به، فصارت تبحث عن حضن يحتويها فالإنسان يبحث عن الحنان مهما كان قوياً... فإن لم يجده بين القريبين سيبحث عنه عند الغرياء، كما فعلت رقية حين ذهبت وراء أستاذها في الجامعة تلاحقه وتركب معه سيارته الفخمة وتثير الشبهوات عليها في كلّ مكان فالكلّ صار يتكلّم عنها في الشّارع وفي الجامعة، «كيف تعجب رقية بمن هو أكبر منها سنّاً؟ يخفي شعيرات بيضاء هاربة ببعض السّواد، تنجذب إليه بصورة جنونية، تبدي له حبّها الشديد لأنّه أدنى أستاذ في الجامعة»<sup>2</sup>.

وجدت رقية في منير الأمان الذي فقدته في بيتها وأصبح كالسند الذي تريده لنفسها وقد غرّتها شهوات الدّنيا واتبعت هواها ونسيت أنها بذلك قد تجلب العار لوالديها وإخوانها. رغم أنّ الأستاذ منير كان شخصاً مسؤولاً لم يمسه بسوء أبداً، ويؤذيها حتى ولو بكلمة واحدة، لكن أعين النّاس تلتهمها التهاماً، فهي تنزل من سيارة فاخرة في الحيّ يقودها رجل بالغ، فالكلّ سيفكر بالسوء عنهما، وذلك سيؤثر حتى على إخوانها، فالسّعي إلى تغيير طريقة العيش أصبح جنونا

<sup>1</sup> - الرّواية، ص 30.

<sup>2</sup> - الرّواية، ص 53.

بالنسبة للمجتمع وأخبارها كانت تتداول على كلّ لسان، و كلّ تلك الأخبار كانت تصل لأخيها رضا، ممّا وضعه في موقف مُحرج لا يحسن فيه الدفاع عنها.

رضا كان يحبّ ممارسة الرياضة بالقرب من الحي، لكن ما يسمعه من كلام رفاقه السيئين عن أخته أثر على حياته و هذا كونه ضعيف الشخصية حتّى أنّه لا يجروّ على الإجابة عليه لم يتقبّل الأمر لأنّه كان يعتبر أخته الشرف الذي يحافظ عليه، و إن مسّ أحد شرفه مسّ العائلة كلّها، أي القصص التي يؤلّفونها عن رقية، سواء صحيحة أم كاذبة لكن تنزل كالصاعقة على مسامعه فيصدّقها دون إرادة منه مع كل ذلك كتم غيظه ولم يكذب الأخبار، بالعكس راح في طريق يواجه فيه حقائق مكشوفة للعلن وغايته أن يهرب من نظرات الناس التي يأكلونه بعيونهم قبل أفواههم.

فأي شخص يراها سيقول نفس الكلام عنها «بعض الرياضيين في النادي لا يكفون عن الحديث عنها ألم تعلّمهم الفنون الرياضية التأمل والنبل والتريث في الحكم على الأشياء؟ يحدث نفسه عندما يمتلئ صدره من كلامهم المسموم الذي كاد أن يكون متواتراً»<sup>1</sup> تلك الكلمات التي يسمعه دوما تضغط على دماغه وتجعله يخرج عن السيطرة ويتبع رفاق السوء لينسى ما يسمعه من زملائه في النادي فاتّجه نحو المخدرات والتدخين ليخفف عن نفسه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - "إنّما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما يُحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة"<sup>2</sup>. ولذلك أصبح البعد عن الناس أيضا بالنسبة لرضا ضربا من الجنون.

لا يستطيع الإنسان العيش منفردا بعيدا كلّ البعد عن النّاس وإنّما لا بد له من جماعة يعيش معها يتبادل معها أطراف الحديث والمنافع والمصالح لذلك يجد لنفسه صاحبا يتشارك معه أموره في هذه الحياة ولكن حسن اختيار صاحب أمر ضروري، فالصاحب ساحب إن كان جيّدا وفيه خير تكون مثله وإن كان سيئا وفيه شر يأخذك معه في ذلك الطريق، وهذا ما حدث مع رضا إذ ضاق به الحال مما يدور حوله ومن العار الذي جلبته له أخته فاتخذ من رفاق السوء أصحابا

<sup>1</sup> - الرواية، ص 53.

<sup>2</sup> - مدونات نعيم الله، الصحاب ساحب aljazeera.net، 12/07/2021.

له ومن المخدرات ملاذا فتخلّى عن الرياضة واتبع الشهوات قال الله تعالى: «والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الّوزدين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما(27)»<sup>1</sup>، إذ أن الله سبحانه وتعالى ينهى عن اتباع الشهوات لما لها من مساوئ على حياة الإنسان وتجعله في مآهات لا نهاية لها، وتأخذه في عوالم سيئة لا مخرج منها، «تغيّرت ملامح وجهه وغابت نضارته وهو الجميل، لم يعد نشطا كعادته، يداه ترتجفان في كل عمل يقوم به، قلقا، لم تعد لديه رغبة في الدّهاب إلى النادي الذي تربى فيه؟»<sup>2</sup>.

بدأ تأثير المخدرات يظهر عليه بشكل واضح فتأثر من الدّاخل ومن الخارج فقد تآكل جسده وشحب لونه وفقد كل طاقته، وسحبته لدوامة جعلته يتغيب عن البيت وأخذت منه إدراكه وسرقته من حضن والدته واتبع أصحابه الذين أغووه بحلاوة الإبتعاد عن الوطن والذهاب إلى البلدان الأخرى بحثا عن حياة أفضل، «هكذا هو عالمه المختلف الذي ترسمه سيجارته العجيبة همس ذات مساء لأحد أصدقائه أنّ غيابه سيطول، وأنّه سيرتك هذه المدينة التي يتبع أهلها كلّ كبيرة وصغيرة وينشرونها في الطرقات»<sup>3</sup> في المدن الصغيرة النّاس تراقب بعضها البعض بشكل كبير، فأى حركة يترصدونها وينشرونها ويزيدون عليها من عندهم وينشرون الإشاعات والقصاص كما يحلو لهم، غير مبالين برّدّة فعل الشخص المعني بالأمر إن كان سينأذى مما يفعلوه له، فأيّ شخص يتصرّف على عكسهم أو يقوم بأعمال لم يعمدو للقيام بها من قبل يصبح سيرة على كلّ لسان مار في الحيّ، وهذا ما دفع برضا للبحث عن مكان لا يعرفه فيه أحد كي يكفّوا عن اختلاق القصاص عن والده المهووس بالمال وأخته التي تصاحب أستاذها ولا عن أمّه التي فقدت عقلها من كثرة الضغط الذي أحاط بها، لم يسلم أحد من الجنون بسبب ما قام به أسعد.

### 3-قراءة الكتب وهم يؤدي إلى الجنون:

وسيم الولد المثقف الذي يتخذ من الكتب أصدقاء له، فقد انحرف عن هذا الطريق «يدخل وسيم نفسه في عالم الخيال، هربا من الحقيقة المرّة التي بدأت تتضح معالمها، يظلّ عاكفا على

<sup>1</sup> - سورة النساء، الآية 27.

<sup>2</sup> - الرّواية، ص 50.

<sup>3</sup> - الرّواية، ص 51.

قراءة القديم والجديد من الكتب»<sup>1</sup> إذ أن كل ما يراه في واقعهم الأليم شيء لا يقدر على تحمّله فيذهب للكتب لتأخذه إلى عالم آخر أكثر أمنا ممّا هو فيه لكن سرعان ما أصابه الفُتور من القراءة ولم تعد الكتب تجدي معه أي نفع، «فلم يعد يجد ما ينسيه ألمه وخوفه بعد تززع عائلته ما قيمة الأدب والفلسفة وعلم النفس والرياضيات والعلوم الأخرى التي لا تستطيع أن تقدم دواء شافيا لألمي ولي»<sup>2</sup>، لم يعد يجد لذة للقراءة وأصبح ذلك العالم غير مجدي بالنسبة له، فلا ينتفع به في شيء.

حياته وعائلته تتدمر أمام ناظريه والكتب لا يسعها حلّ هذه الأزمات له، إذ هي بلا فائدة الآن أصبح يرى الكتب مجرد كلمات لا أساس لها من الصحة وأنها أشياء لا تتفعه، «ها هو يتنكر لها يحدث كتابها وفلاسفتها ويرميها بالضلال؛ كيف كذبوا على نفوسهم وعليه حين أعطوا الإنسانية جرعات مغشوشة وهم ينفخون في رواياتهم، وهم يعلمون الناس كيف يجب أن تكون الحياة؛ أن نعيش غير مباليين بما يدور حولهم وأنها لا تستحق كلّ العناية، وأن نعيشها كما هي دون تعقيد»<sup>3</sup>. لقد تغيرت نظرته للكتب والكتاب وفهم أن لا شيء سهل في هذه الحياة وأن ما يصوره المؤلفون في قصصهم ليست الحقيقة الكاملة، فهم لم يُظهرو ضعفهم للقراء وكانوا يبخلون بدموعهم وبوهمونهم بأنّ الحياة لا تستحق كل هذا العناء، وكلّ شيء ينتهي إن تغاضى عنه، ولم يجبر نفسه على شقائها وتعبها، وبات تصديق الكتاب نوعا من الجنون ينبغي التخلص منه.

تغيرت أفكار وسيم تجاه هؤلاء الأدباء بعد أن ذاق من الحياة سمّها، لم تعد الكتب تشفي غليله ولم تعد تخفف عنه شيئا بعد أن فهم أن الكتب عالم من الخرافات التي يصعب تجسيدها على أرض الواقع، فهي مجرد وهم والوهم حالة من الجنون، فلعلّ هذه الكتابات هي أمنيات صاحبها التي تمنى لو يقدر على تجسيدها في حياته، بعد أن سيطرت الأفكار السوداوية عليه رأى أنه لن يجد الرّاحة في عالمه الذي لطالما كان مهربه من جلّ مشاكله، «لم يعد يفقه شيئا من فلسفتهم. كيف يروا أنّ الحياة مجرد رقصة؟ كيف يموت أحبابهم بين أعينهم وهم يلجؤون إلى

<sup>1</sup> - الرواية، ص 50.

<sup>2</sup> - الرواية، ص 58.

<sup>3</sup> - الرواية، ص 58.

الرّقص ماذا؟ أليس هذا هو الجنون بعينه؟ وبدأ يرميها على الأرض، وهو يقول: -ما الفائدة منك إذ كنت لا تقدمين علاجاً للأوطان التائهة؟<sup>1</sup> من الصعب رؤية من نحبه يغادروننا ولا نقدر على فعل أي شيء لإعادتهم، تلك المشاعر تظل تُرهب صاحبها وتؤلمه، فكيف لإنسان فقد عزيزاً أن يفرح و يرقص؟ كيف له أن يكمل حياته وكأن شيئاً لم يكن؟ كأن هؤلاء الأدباء لا يمتلكون قلوباً تحس بالشوق وألم الفراق حتى يقدرُوا على الرّقص لرحيل أحدهم، أم أنّ لهم طريقتهم الخاصة لإخراج حزنهم، ولأن طريقتهم عكس ما هو مألوف عند باقي البشر الذين يُعبّرون عن حزنهم بالبكاء والنحيب اعتبرناهم مجانين.

فعقل وسيم لم يعد قادراً على استيعاب هذه الأمور التي بدت له كذبا ووهما كبيراً أدخله فيه حبه للقراءة، فكيف لكتب فيها آلاف الصفحات ألا تجد حلاً لوجعه وللمصاب الذي أصابه عائلته تتفكك أمام أعينه والكتب غير قادرة على إصلاح شيء منها، رأى انهيار أمه و جنون والده المتسلط والريح التي تعصف بإخوانه وتأخذهم لعوالم سيئة وتجعلهم مجرد مجانين لا فائدة منهم في نظر هذا المجتمع المتحفظ، عقله لم يعد يريد فهم أي شيء من تلك الكتب التي لا تسعفه وهو في أمس الحاجة لها فاختر البحث عن عالم أفضل يجد فيه أمانه بعد أن فقدته في مكتبته، «بعد أن هجر كتبه، سلك طريقاً آخر، دلّه عليه أحد الشيوخ. دخل حضرة للرّقص، محاولاً أن يجرب معراجاً فولكلوريا لعلة يخرج ما به من غم، لعلّ ربح هؤلاء تأخذه بعيداً، تنسيه حاله وهي تتألم في صمت، تبحث عن سنابل الحياة التي زرعت حياتها بين وسائدها لسنين عديدة»<sup>2</sup>

لعلّ عالم القراءة لم يعد يفي بالغرض معه ليخرج من جنون القراءة إلى جنون آخر.

قرّر إيجاد عالم آخر قادر على إخراج ما في جوارحه فوجد ساحة الرّقص واللّهو والغناء كحلّ أنسب له يُفرغ فيه كلّ طاقته السلبية ويخرج كل مكبوتاته التي لطالما حبسها بداخله بينه وبين نفسه، «تمرغ، بعدما نزع ما عليه من ثقل الثياب، وقد ارتوى من خمرة الغياب، وسط سحب البخور المتصاعدة»<sup>3</sup>. غاب عن إدراكه وسافر لعالم آخر، عالم خال من التفكير والتركيز

<sup>1</sup> - الرواية، ص 59.

<sup>2</sup> - الرواية، ص 60-61.

<sup>3</sup> - الرواية، ص 61.

لفهم ما يحدث، عالم ليس فيه سوى السعادة بعد أن أخذته سكرته في جولة من المرح في غياب عقله، في لحظة حذفت من ذاكرته كلّ الأمور السيئة ودخل في أجواء مغايرة، قد أصبح الآن مجنوناً أنسته رقصة رحيل من يحبّه عنه تماماً، كما ذكر الأدباء الذين قرأ رواياتهم وقد سبق أن وصفهم بالمجانين وها هو اليوم يقوم بنفس ما يقومون به يرقص لينسى ألمه وهذا يجعله مثلهم تماماً. «إنّ المجانين يعيشون في طهرانينا، بل إنّ جزءاً كبيراً من ساكنة المعمور قد فقد عقله منذ زمن بعيد، فالكثير من يعمّه في الجنون في غفلة من نفسه ومن الآخرين فالأبله والبليد والغبي والمعتوه والمتخلف والأحمق هؤلاء جميعاً مجانين في عرف النورولوجيا الحديثة والقديمة»<sup>1</sup> فالجنون له ضرب آخر بعيداً عن كونه مرضاً نفسياً يضغط على الأعصاب ويسبب في غياب الوعي لفترات طويلة، إنما أيضاً هو تصرفات غريبة عن مجتمع ما، جديدة عليهم أو متغايرة لأفكارهم ينعنون صاحبها بالمجنون.

نحن بطبعنا متى ما رأينا شخصاً يتصرف خلافاً لمعتقداتنا نقول عنه أنّه فقد صوابه وأنّ عقله ليس معه أي مجنون وليس بوعيه ولا يدرك ما يحدث من حوله ولا يتقبل واقعه كما هو فيلجأ لابنتكار قصص وعوالم أخرى تناسب أفكاره وأقل ما يمكن أن يناديه به الناس هو غريب الأطوار أو المجنون. رغم أنّ عقله سليم تماماً، أخذته متاعب حياته في طرق مختلفة عن الطرق التي يسلكها الناس عادة، وذلك ليحاول إيجاد نفسه الضائعة منه بين مفارقات البشر والتميز الذي يسيطر على عقولهم، فلا هو يتقبلهم ولا هم يتقبلونه، فيكون ملجأه الأوّل هو عائلته، فنظراً لأهمية الأسرة في حياة الفرد فهي مكانه الآمن الذي يكون فيه على طبيعته دون قيود فالرّابطة بين الأهل لا تكون مجرد دماء بينهم بل بينهم شعور بالأمان والاهتمام وفيما يخص العائلات الجزائرية فهي أسر كبيرة متحدّة، فمن وجهة نظر مصطفى بوتافنوشث الذي اهتم بدراسة العائلة الجزائرية هي: «عائلة موسعة حيث تعيش في أحضانها عدّة عائلات زوجية تحت سقف واحد»<sup>2</sup>، أي أنّ الأفراد يترعرعون سوياً ويتشاركون كلّ الأمور تحت نفس السقف، وإذا ما ترزّع هذا المفهوم وانهدت هذه الحياة فحتى الأفراد سيتأذّون منها.

<sup>1</sup> - ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص 12.

<sup>2</sup> - موقع المعهد الذهبي، Elma3had.com، مفهوم الأسرة.

إن كان الإنسان معتاداً على مواجهة الصعاب لوحده يكون من السهل عليه تخطي مثل هذه الأمور، أمّا من اعتاد على وجود ناس من حوله يقفون بجانبه ويساندونه حتى ولو بكلمة واحدة، فغياهم عنه سيؤثر عليه بشكل كبير ويجد نفسه ضائعاً لا يدري ما يفعله ولا يعي شيئاً مما يحصل له، فيتخذ الجنون سبيله إليه بطريقة ما، فتجده يحاول البحث عن مكان أفضل وعالم أحسن كما فعل كلّ من (رقية، رضا، وسيم) حين أحسوا بالضياح داخل بيوتهم، وعندما شهدوا تفكك عائلتهم جعلتهم يرون الحياة بشكل آخر مختلف عما كانت عليه. فركبتهم ريح التغيير وألقتهم في طرق أخرى هي في عرف الآخرين ضرب من الجنون.

#### 4-اللامبالاة جنون:

وفي جانب آخر بعيداً عن هذه العائلة التي جرفتها أمواج الجنون وخزيت فيها كل جميل هناك مجنون آخر يراقب الأوضاع من بعيد، وظل يتفرج على ما يحدث في صمت دون أن يتدخل في شيء، وهذا الشخص أيضاً مجنون في نظر من يراه، فقط لأنه مختلف عن الناس من حوله فهو شخص لم يتغلغل إلى دمه حبّ المال والرّفاهية والتسابق لبناء بيت كبير كما فعل الجميع من حوله، كما أنّه لم يترك قريته ويغادر إلى المدينة كغيره، وجد راحته بين غنمه وفي خيمته المتواضعة البعيدة عن أنظار البشر، ولعلّ شكله المتسخ هو أكثر ما يجعل الناس يفكرون أنّه مجنون لا يعرف كيف يهتم بهندامه ولا بنفسه ومظهره، «يا راعي الأغنام. كفاك عنادا وأنت تنأى بنفسك عنّا، كأنك تعلمنا أنّ العيش أحسن وأطيب في الكهوف والخيام من طرف الأبراج العالية وأنك من الصديقين الأخيار... لقد انكشف أمرك... سيأتي هلاكك يوماً... يا أيها المجنون...»<sup>1</sup>. هو يكتفي بصمته وعزلته بعيداً عن ضوضاء المدن، ممّا يجعله مشبوهاً فأى إنسان عاقل هذا الذي سيتترك الحياة المتوفرة على وسائل الرّاحة ويتبع خيمة باردة وأغناماً؟ كيف له ألا يهتم لمثل هذه الأمور لابدّ وأنه بلا عقل ليفكر مثل الجميع في مصالحه. لا يدركون أنّه مرتاح وسعيد وهو بعيد عنهم وعن أعينهم التي ترمي سهام الحقد فتصيب الضعفاء. فالزهد في الحياة واللامبالاة والإكتفاء بالحياة البسيطة يصبح أيضاً نوع من الجنون في عرف الآخرين.

<sup>1</sup> الزّواية، ص 10.

ورغم ذلك ظلّ الرّاعي يشاهد ما يحدث وكيف تنهار عوالم هؤلاء النّاس في صمت ولم يفكّر يوماً في تقليدهم أو التّدخل في شؤونهم، صنع لنفسه عالمه الخاص الذي لا يزعجه فيه شيء ولا يُعكّر مزاجه، «أما أنا فلم أبرح هامشي المريح»<sup>1</sup>، أي أنّه يرى حياته في ذلك المكان مريحة ولا تزعجه صعوبة العيش في الجبل داخل خيمة ولا تلك الدّئاب الضّالة التي تنترصد بغنمه، فهو بذلك المكان تعود على ظروف العيش وارتاح من همّ البشر ومشاكلهم.

---

<sup>1</sup> الزّواية، ص 21.

## المبحث الثاني: نبوءة ما بعد الجنون:

لا شيء يدوم طويلا في الحياة، فحتى الإنسان ما هو إلا ضيف على الأرض، يأتيه يوم يرحل فيه عن بيته وأهله ويسلم روحه لخالقه، حتى لو زاد الأمل وصعبت الحياة فسيأتي يوم تنتهي فيه الكرب، ويجتمع الإنسان مع أماله وأحلامه وينسى كل ما تجرّعه من ألم، وقد قال الله تعالى «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»<sup>1</sup>، وبذلك يؤكد على أنّ الظلام لا بد له أن ينقشع والشمس ستشرق مبشرة ببداية يوم جديد مليء بالتفاؤل والأفراح.

هذا ما حدث مع شخصيات الرواية فبعد أن داهمتهم ريح الجنون وبعثرت أوراقهم وهدمت العلاقة القائمة بينهم عادوا إلى سابق عهدهم عائلة متماسكة سعيدة رغم أن هناك بعض الأمور التي لم تعد كما كانت إلا أنّهم تخطّوها وواصلوا حياتهم سوياً. وهي نظرة استشرافية تتخطى مسألة النية والجنون التي ورد بها عنوان الرواية، والتي كانت تمثيلاً لحالة المجتمع الجزائري ووضعية الجزائر برُمته من خلال هذا النموذج العائلي المتمثل في مريم وأبنائها.

بعد المعاينة الجيدة من الطبيب للسيدة مريم استقرت حالتها، واستطاعت الخروج من جنونها واستعادت إدراكها الكامل بالواقع، «بعد غياب طويل عاد كل أحباب السيدة مريم إلى حضنها كطيور مهاجرة تبحث عن الماء في أماكن بعيدة»<sup>2</sup>. بعد شفائها اجتمع أولادها حولها كأناس تمّ نفيهم من وطنهم ثم أعيدوا إليه من جديد، فشعروا بالأمان في موطنهم وعادت السعادة إلى قلوبهم. وأصبح «الوطن هو المكان الذي نسكنه ونقيم فيه حضارة معينة بكل تجلياتها، فهو الحزن والملذذ الآمن الذي تأوي إليه أرواحنا، والبيت الكبير الذي يجمع الأهل والأحبة أحياء وأمواتا، إذ نولد فيه ونتمنى أن نموت وندفن فيه»<sup>3</sup>. وإن غاب هذا الوطن أو تدمر يضيع أهله بلا مأوى يأويهم، وكذلك بالنسبة للأسرة فهي بمثابة الوطن للفرد، وهي أساس وجود المجتمع «وقد يتبادر إلى أذهان آخرين أن نظم الأسرة في كل مجتمع إنساني ينشئها أفراد من قاداته ومشرعيه، وتسير وفق ما يريده لها هؤلاء، ففي استطاعتهم أن يغيروا فيها كما يشاؤون وتشاء لهم أهواءهم»<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> سورة الشرح، الآية 05 / 06.

<sup>2</sup> الرواية، ص 95

<sup>3</sup> أمين أمكاخذنا من حب الوطن ما لن نحسد عليه، <https://www.aljazeera.net/blogs/2019/11/16/>

<sup>4</sup> عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ط2 مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، 1948، ص 03.

أي أنها كيان قائم تقوم عليه المجتمعات وإن تضررت تضرر معها، أي فساد ينبع من داخل الأسرة يؤثر بشكل كبير على المجتمع مثلما حدث مع شخصيات الرواية، فنجد طمع أسعد تسبب في دمار المدينة كلها وإحراقها «فما إن جُنَّ الليل حتى أشعلوا النار في مصنعه الكبير وفي ك مستودعاته»<sup>1</sup>. وقد أدت هذه الحرائق كل الناس وليس الشخص المقصود فقط مما أخلّ بتوازن الناس كلهم وأذاقهم الرعب ورسم للفقر طريقا إليهم، وكل ذلك ينبع من أسرة واحدة قد اختل توازنها وضاعت في اتباع شهوات وملذات الحياة، إلا أن عُمي بصيرتهم لم يَطل.

أتضح أنّ هناك شخصا دخيلا هزّ كيان الأسرة ما سبب خسائر كبيرة لكل من حولها أيضا، وهو ذلك الرجل الأحذب الذي أتى في إحدى الليالي وقلّب حياتهم رأسا على عقب «ظلت كلمات الأحذب تنخر في جسم أسعد حتى أصبح مجرد هيكل عظمي غابت عنه تلك النضارة»<sup>2</sup>. إذ أتى رجل غريب أساء القول عن السيدة مريم مما حطّم الثقة التي بين أهل البيت «الثقة بين الناس تجعل الناس ينظرون لبعضهم البعض نظرا يتسم بالنبل ويغلبون مصالح الآخرين والمصالح العامة على الخاصة»<sup>3</sup>. وبالتالي فالأساس بين علاقات الناس مبني على الثقة، وإن انعدمت يكون من الصعب التعايش بين الأفراد، فكيف يكون الأمر إن كانت منعدمة بين أفراد الأسرة الواحدة يصبح البيت كالسجن، مخيف لا يرتاح فيه المرء ولا يقدر على التعبير عن نفسه، فيبحث عن حزن آخر يحميمهم حتى لو كان بطرق غير متوافقة مع المجتمع أو لا يتقبلها الناس حتى اتباع إجراءات الحياة وملذاتها. وبالتالي تأخذه في رحلة جنون مختلفة عن كونه مرض يعالج بالأدوية والجلسات الطبية، إنما يمكن إدراجه تحت مصطلحات مثل حماقة والغباء أو ما يقال عنه قلة العقل، وهي كلها أمور تتشابه في الأعراض إلا أن هذه الأخيرة لا تعتبر أمراضا تحتاج إلى علاج، إنما تحتاج إلى تركيز وتدريب للعقل. «كانت كل مدينة من مدنه تُعج بالمجانين، فعُشر الذين كان يتم توقيفهم في باريس ويزج بهم في المستشفى العام كانوا «حمقى» أو أشخاصا فقدوا السيطرة على أنفسهم أو «أشخاصا مسلوبى الأذهان»<sup>4</sup>.

إنّ انتشار تلك الفئة من الناس جعل من الصعب على الأطباء التعرف على المرض دون تشخيص دقيق للتشابه الكبير بين الأعراض، إذ يمكن رؤية شخص يلبس كالمتشرد يتفوه

<sup>1</sup> الرواية، ص70.

<sup>2</sup> الرواية، ص76.

<sup>3</sup> ياسين أقطاي 20/3/2023 <https://www.aljazeera.net/opinions/2023/3/20>

<sup>4</sup> ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ص133.

بالحماقات، فيتم الحكم عليه على أنه مجنون بينما هو مجرد أحمق لا يدري ما فائدته من هذه الحياة.

يمكن لنا إيجاد الكثير من الصفات التي تشبه الجنون أو التي تم إدراجها كمفاهيم فرعية للجنون، وبالتالي يمكن لنا إدراج حالة شخصيات الرواية تحت إحدى هذه المفاهيم العرضية التي لا علاقة لها بالمفهوم العلمي للجنون، إذ يكون مجرد نعت لأشخاص اتخذوا سبلا مختلفة للحياة بأمور مخالفة لمعايير المجتمع، جعلتهم يظهرون بصورة مختلين عقليا أمام من يراهم إلا أن هذه النظرة لم تدم، فعاد كل شخص إلى رشده وبدأ باستعادة ذاته وحماية نفسه فاخفت عنهم أعراض الجنون وبدأوا باسترجاع إدراكهم بالواقع المحيط بهم.

في النهاية عرف التائه طريق العودة وانكشف الغطاء عن أعينه وإدراك أن العائلة هي أساس وجوده، وأنها من تأسسه أو تدمره، فإن صلحت الأسرة صلح المجتمع وإن فسدت فسدت المجتمع، كونها الركيزة الأولى التي يرتكز عليها، وأيضا تكون الأسرة كالوطن الذي يحمي من البرد والجوع، وتكون الأمان والسند الذي يحمي الطفل من يوم ولادته إلى مماته، وإن تزعزع هذا الأمان تشتد الأفراد وتاه دون وجهة في هذا العالم، وعنوان الرواية يضعنا أمام معادلة صعبة تؤكد أن الوطن تاه وأن التيه هو جنون، وأن تمثيل هذا الجنون بحالة مريم وأبنائها ليؤكد أن الرواية كلها هي استعارة كبرى لحالة هذا الوطن التائه، وقد أبان الروائي مظاهر هذا الجنون الفردي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، غير أن النبوءة التي تحملها النهاية التي آلت إليها أحداث الرواية ومصائر الشخصيات تدل على أن الإيمان بالوطن، سيورث حتما حالة استشرافية تقول أن بعد كل حالة جنون حالة تعقل وعودة للوعي.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات تمكنت من ختم البحث الذي تطرقت فيه إلى بعض الجوانب المتعلقة بأنساق الجنون في رواية "ريح الجنون أو عندما يتيه الوطن"، والتي تناولت الموضوع بشكل ملفت، فحاولت من خلال هذه الرواية اظهار مظاهر الجنون بمفهومه المرضي والاستعاري.

إنّ الجنون عنصر مسير لأحداث الرواية، وقد رافق الكاتب من بداية الرواية إلى نهايتها وكان أبرز حدث قام باستظهاره.

استنتجت من خلال دراستي للفصل الأول أنّ الجنون مرض مستعصي لا يمكن التنبؤ به ولا ندري من أين يمكن له أن يجد طريقة إلينا، وأتّه حتى لو شفي يترك آثارا داخل نفوس المرضى والناس المحيطين به، يظل كوصمة كبيرة في أعماق المصاب به مهما مر عليها من وقت لا يمكن محوها.

ومن خلال دراستي للفصل الثاني استنتجت أنّ الجنون له مفهوم استعاري مغاير لمفهومه المرضي، وكيف يمكن أن يكون الإنسان مجنونا بعيدا عن تشخيص الأطباء، فهو تأويل اجتماعي لتصرفات الأشخاص عن بعضهم بعضا. ولذلك نستنتج أنّ الحالة النفسية والعقلية للإنسان مرتبطة بالبيئة المحيطة بشكل عام وبالأسرة بشكل خاص. وأنّ تدهور هذه الأخيرة يسبب ضياع أهلها وتشتتهم.

لقد أبان الحديث عن مسار الجنون الحقيقي في الرواية واستعارات الجنون أن الرواية كلها تعتبر استعارة كبرى لما يحدث في الوطن ليصبح التيه الوارد في العنوان ضربا من الجنون، ولذل تصبح العائلة المجنونة في الرواية نموذجا مصغرا لحالة التيه التي ترتبط بهذا الوطن الذي غرق أفراده في حالات مختلفة من الجنون العام، غير أنّ في الرواية أملا واستشرافا لمستقبل أفضل نلمسه من خلال عودة مريم إلى عقلها ولم شمل العائلة.

استنتجت من خلال الدراسة للفصل الأول المعنون بمسار الجنون المرضي ومآلاته، أن الجنون المرضي مستعصي لا يمكن التنبؤ به ولا يمكن اكتشاف أسبابه بسهولة، وذلك لتعددتها وتفرعها وكذلك تداخلها ببعضها البعض، فقد طغت الأسباب الاجتماعية بشكل كبير على أحداث الرواية وظهرت بشكل ملفت في مرض السيدة مريم إذ كانت أحد الأسباب الرئيسية في وصولها

إلى تلك الحالة، وكذلك التفكك الأسري والهيمنة الذكورية والأزمات العائلية والمشاكل النفسية التي التي تعاني منها مريم.

قائمة المصادر

والمراجع

• القرآن الكريم

أولاً: المصادر:

1. بحتي ضيف الله، ربح الجنون أو عندما بيتيه الوطن، ط1، دار النشر خيال، برج بوعريج، الجزائر، 2021.

ثانياً: المراجع:

1. بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة د. سلمان قعفراني، ط1 دار النشر في منتدى مكتبة الإسكندرية، توزيع مركز دراسات العربية، لبنان، 2009.
2. روي بورتر موجز، تاريخ الجنون، ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2012.
3. سغوند فرويد، الكبت تحليل نفسي، ترجمة علي سيد حضارة، ط1 المكتبة الشعبية القاهرة، بدون سنة.
4. عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ط2 مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة، 1948.
5. ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، 2006.

ثالثاً: المجلات:

1. نور الدين بولحية، الاستعمار الكلاسيكي وجرائمه في حف الشعوب، الاستعمار الفرنسي أنموذجاً، مجلة آفاق علمية، العدد 15، مجلد 10، مج 01، جامعة باتنة، 2018.

خامساً: المواقع الإلكترونية:

1. أمين أمكاح / <https://www.aljazeera.net/blogs/2019/11/16/> أخذنا من حب الوطن ما لن نحسد عليه، 16/11/2019.

2. حسن مظفر الرزوي، الجنون قراءة أولية لدلالاته في المجتمع الإسلامي، واحة النفس المطمئنة، كلية الحداثة والدراسات الإسلامية، الجامعة العراقية، الموصل، العراق  
[https://www.elazayem.com/main/islamic\\_encyclopedia/null](https://www.elazayem.com/main/islamic_encyclopedia/null)
3. رانية المخبني، د. نريمان عمار، سلوك المستهلك، الجامعة الافتراضية السورية، 2020.
4. علوي بن عبد القادر السقاف، الموسوعة الفقهية، كتاب الطهارة المبحث الثاني، العقل الدرر السنّية،  
<https://dorar.net/feqhia/245/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A8%D8%AD%D8%AB-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%82%D9%84>
5. محسن وحي، التربيّة عند جون جاك روسو، <https://m.ahewar.org/>، 21/12/2020.
6. مدونات نعيم الله، الصحاب صاحب aljazeera.net، 12/07/2021.
7. موقع المعهد الذهبي، Elma3had.com، مفهوم الأسرة.
8. ياسين أقطاي <https://www.aljazeera.net/opinions/2023/3/20>

# فهرس المحتويات

شكر وعران

اهداء

05.....مقدمة

الفصل الأول: مسار الجنون المرضي ومآلاته

08.....تمهيد

09.....1.المبحث الأول: الصراعات الداخليّة وغياب الوعي

17.....2. المبحث الثاني: من اللاوعي إلى الوعي الحذر

الفصل الثاني: البعد الاستعاري للجنون

24.....1. المبحث الأول: استعارات الجنون

33.....2. المبحث الثاني: نبوءة ما بعد الجنون

35.....- خاتمة

37.....- قائمة المصادر والمراجع

40.....- فهرس المحتويات

### الملخص:

تناول البحث أنساق الجنون في رواية "ريح الجنون أو عندما يتيه الوطن"، لبختي ضيف الله، وقد تضمن مفهوم الجنون المرضي ومفهومه الاستعاري، وبالعودة إلى الأسباب التاريخية والاجتماعية، والنفسية، التي تساهم بشكل كبير في ظهور هذا المرض وتقرّعه إلى عدّة مفاهيم. وكذلك إن علاج المرض يعود إلى إصلاح تلك الفجوات والصدمات التي تلقاها المصاب. غير أن الجنون في الرواية جاء تمثيلا رمزيا للتعبير عن تيه الوطن اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا لنتهي بعد التحليل إلى أن الرواية كانت بمثابة تفكيك استعاري لما تشهده الجزائر من مشاكل، قدم في نهايتها الروائي نبوءة استشرافية بحياة أفضل.

### الكلمات المفتاحية:

الجنون، أنساق الجنون، رواية "ريح الجنون أو عندما يتيه الوطن"، مفهوم مرضي، مفهوم استعاري.

### Summary:

The research dealt with the patterns of madness in the novel "The Wind of Madness or When the Homeland Lost," by Bakhti Dhifallah. It included the concept of pathological madness and its metaphorical concept, and by returning to the historical, social, and psychological causes that contribute greatly to the emergence of this disease and its branching into several concepts. Likewise, the treatment of the disease is due to repairing those gaps and shocks that the afflicted person received. However, the madness in the novel came as a symbolic representation to express the loss of the country socially, politically and economically. We conclude after analysis that the novel was a metaphorical deconstruction of the problems that Algeria is witnessing, at the end of which the novelist presented a prophecy. Looking forward to a better life.

### Key words:

Madness, The patterns of madness, The Wind of Madness novel, or When the Homeland Lost ,Satisfactory concept, Allegorical concept.